

التحرير والتنوير

والفريق : الجماعة من الناس وأشار به هنا إلى فريق من اليهود وهم شاس ابن قيس وأصحابه أو أراد شاسا وحده وجعله فريقا كما جعل أبا سفيان ناسا في قوله (إن الناس قد جمعوا لكم) وسياق الآية مؤذن بأنها جرت على حادثة حدثت وأن لنزولها سببا . وسبب نزول هذه الآية : أن الأوس والخزرج كانوا في الجاهلية قد تخاذلوا وتحاربوا حتى تفانوا وكانت بينهم حروب وآخراها يوم بعث النبي التي أنهت قبل الهجرة بثلاث سنين فلما اجتمعوا على الإسلام زالت تلك الأحقاد من بينهم وأصبحوا عدة لإسلام فساء ذلك يهود يثرب فقام شاس بن قيس اليهودي وهو شيخ قديم منهم فجلس إلى الأوس والخزرج أو أرسل إليهم من جلس إليهم يذكرهم حروب بعث فكادوا أن يقتتلوا ونادى كل فريق : يا للأوس ! ويا للخزرج ! وأخذوا السلاح فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل بينهم وقال : أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ ! وفي رواية : أبدعوى الجاهلية ؟ ! " أي أتدعون بدعوى الجاهلية " وقرأ هذه الآية فما فرغ منها حتى ألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضا قال جابر بن عبد الله : ما كان طالع أكره إلينا من طلوع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أضحى بيننا ما كان شخص أحب إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيت يوما أقبح ولا أوحش أولا وأحسن آخر من ذلك اليوم . وأصل الرد الصرف والإرجاع قال تعالى (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر) وهو هنا مستعار لتغير الحال بعد المخالطة فيفيد معنى التصيير كقول الشاعر فيما أنشده أهل اللغة : . فرد شعورهن السود بيضا ... ورد وجوههن البيض سودا و (كافرين) مفعوله الثاني وقوله (بعد إيمانكم) تأكيد لما أفاده قوله (يردوكم) والقصد من التصريح توضيح فوات نعمة عظيمة كانوا فيها لو يكفرون .

وقوله (وكيف تكفرون) استفهام مستعمل في الاستبعاد استبعادا لكفرهم ونفي له كقول جرير . :

كيف الهجاء وما تنفك صالحة ... من آل لأم بظهر الغيب تأتيني وجملة (وأنتم تتلى عليكم آيات الله) حالية وهي محط الاستبعاد والنفي لأن كلا من تلاوة آيات الله وإقامة الرسول عليه الصلاة والسلام فيهم وازع لهم عن الكفر وأي وازع فالآيات هنا هي القرآن ومواعظه . والظرفية في قوله (وفيكم رسوله) حقيقية ومؤذنة بمنقبة عظيمة ومنة جلييلة وهي وجود هذا الرسول العظيم بينهم تلك المزية التي فاز بها أصحابه المخاطبون وبها " يظهر معنى قوله صلى الله عليه وسلم " فيما رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري " لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه " النصيف

وفي الآية دلالة على عظم قدر الصحابة وأن لهم وازعين عن مواجهة الظلال : سماع القرآن ومشاهدة أنوار الرسول عليه السلام فإن وجوده عصمة من ضلالهم . قال قتادة : أما الرسول فقد مضى إلى رحمة الله وأما الكتاب فباق على وجه الدهر .

وقوله (ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم) أي من يتمسك بالدين فلا يخشى عليه الضلال . فالاعتصام هنا استعارة للتمسك .

وفي هذا إشارة إلى التمسك بكتاب الله ودينه لسائر المسلمين الذين لم يشهدوا حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم " .

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون [102] واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون [103]) انتقل من تحذير المخاطبين من الانخداع لوساوس بعض أهل الكتاب إلى تحريضهم على تمام التقوى لأن في ذلك زيادة صلاح لهم ورسوخا لإيمانهم وهو خطاب لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم " ويسري إلى جميع من يكون بعدهم .